

## بَرَجَزَة القدس ضمن سياق الاستعمار الاستيطانيّ

حليمة أبو هنيّة\*

تطبّق إسرائيل خطة ممنهجة لخلق التغييرات المكانية والديمقراطية في القدس، وذلك في سبيل تحقيق هدفها بزيادة عدد السكّان اليهود في المدينة مقابل السكّان الفلسطينيين. وقد جرى الكشف عن هذه الخطة من خلال الخطط الهيكلية التي تضعها إسرائيل للقدس، وآخرها خطة "القدس 5800: رؤية القدس 2010-2050". يركّز البحث على دراسة أدوات الاستعمار الاستيطانيّ لخلق التغيّرات المكانية والديمقراطية في القدس ابتغاء تعزيز ضمّ المدينة، وترمي الدراسة إلى الكشف عن الصلة بين سياسة الاستيلاء على الأرض ومسح السكّان الفلسطينيين في القدس، والمصالح النيوليبرالية لإسرائيل، من خلال دراسة عملية بَرَجَزَة القدس ضمن سياق استعمار استيطانيّ من وجهة نظر اقتصاد سياسيّ. الخطط الإسرائيليّة للقدس تستهدف -في أساس ما تستهدف- نسيج المدينة الحضريّ، وذلك بعزل سكّانها الفلسطينيين عن سائر تجمّعات الشعب الفلسطينيّ في الضفة الغربية، من جهة، وبارغامهم على الاعتماد كليّاً على إسرائيل كأقلية، من جهة أخرى. وتنفّذ إسرائيل خططها بعدّة طرق، من بينها بناء جدار الفصل الذي يفصل القدس عن الضفة الغربية، وإقامة المستوطنات التي تشكّل حلقة تحيط بالقدس. خطة "القدس 5800"، من ناحية أخرى، تشتمل على رؤية جديدة لبرجزة القدس وتحويلها إلى مدينة سياحية تكنولوجية بأغلبية يهودية، من خلال خفض عدد السكّان الفلسطينيين وحرمانهم من حقهم في المدينة عبر القيام ببعض الإجراءات، نحو: سحب هويّات المقدسيين بادّعاءات مختلفة؛ رفض طلبات لمّ الشمل؛ وتقليص مساحات البناء للفلسطينيين -وهو ما أدّى إلى أزمة السكن في المدينة.

اهتمامي بمدينة القدس وعشقي لها بدأ مبكرين جداً، قبل انضمامي إلى برنامج الدكتوراة بسنوات طويلة؛ فقد درستُ فيها وعملتُ في مؤسساتها الوطنية وقضيت فيها أجمل أيام حياتي، لأحرم من دخولها دون تصريح عسكريّ بعد بناء جدار الفصل العنصريّ، وذلك كان نقطة تحوّل مؤلمة في حياتي. تأكّدت آنذاك أنّ إسرائيل ماضية في سعيها لإفراغ المدينة من سكّانها الأصليين، إذ بدأت بمنع وصول سكّان الضفة الغربية إليها، لتنفرد بسكّانها المقدسيين وإفراغها منهم على مراحل. ولا يزال الموضوع يشغلني ويدفعني إلى متابعة جميع الإجراءات والقوانين الإسرائيليّة الخاصة بمدينة القدس وسكّانها. وعندما تقدّمت إلى برنامج الدكتوراة في العلوم الاجتماعية، كانت قضية القدس قد عشّشت في ذهني ولم أكن لأكتب إلّا في هذا الموضوع، وبخاصّة مع نشر الخطة الهيكلية الأخيرة "القدس 5800" والتي وجدت فيها تطبيقاً لعملية بَرَجَزَة للمدينة، ولكن اختلافها عن عمليّات البرجزة في أنحاء العالم كافة يكمن في أنّ هذه العملية في القدس ما هي إلّا أداة معاصرة للاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ في المدينة الرامي إلى إتمام عملية إفراغ المدينة من سكّانها الفلسطينيين، وإلى تعزيز الأهداف الاستيطانية بتهود المدينة وتثبيت ضمّها. وتجرى الدراسة بطرح أسئلة

بسيطة غير معقدة، نحو: كيف تطبق إسرائيل استعمارها الاستيطاني للقدس من خلال عملية البرجزة؟ وما هي أهم سمات هذه العملية في المدينة؟ وهذه الأسئلة الرئيسية تجري الإجابة عنها من خلال معالجة أسئلة فرعية أخرى، نحو: ما هي الآليات التي تستخدمها إسرائيل في السيطرة على الأرض والسكان في المدينة المقدسة؟ وما هي الآليات التي تستخدمها السكان في مواجهة الإجراءات الإسرائيلية في القدس؟ وبهذا تُقدّم الدراسة صورة كاملة وواضحة حول سمات عملية البرجزة هذه في القدس.

## الإطار النظري

نظرياً، تعتمد الدراسة على إطارين نظريين أساسيين يتعلّقان بالاستعمار الاستيطاني وعملية البرجزة. يهدف الاستعمار الاستيطاني، وكما أشار وولف، إلى محو السكان الأصليين وإحلال المستوطنين محلهم. في الحقيقة، عملية محو الفلسطينيين ليست مجرد حدث، ولم تبدأ في العام 2012، أو العام 1967، أو العام 1948، بل بدأت مع بداية الاستيطان اليهودي في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر. ويلتقي مفهوم الاستعمار الاستيطاني بمفهوم البرجزة عند هدف المحو من أجل الإحلال؛ محو سكان أصليين من أجل إحلال مجموعات أخرى مكانهم.

## عملية البرجزة

مفهوم عملية البرجزة الكلاسيكي هو غزو أفراد الطبقة الوسطى لمناطق الطبقات الأدنى (Glass 1964, Hamnett & Williams, 1980)، أو عملية نزوح الطبقات الدنيا وإحلال الطبقات الأعلى مكانها (Lyons, 1996). يشتمل كلا التعريفين على عملية إعادة تأهيل البناء في المنطقة المستهدفة أو تغيير المشهد. ويشير التعريفان إلى ضرورة إزاحة مجموعات، لكن كيف تجري عملية الإزاحة؟ تميّز الأدبيات المتعلقة بشأن البرجزة بين نوعين من الإزاحة: المباشرة وغير المباشرة. الإزاحة المباشرة تعني إرغام السكان على المغادرة بالإخلاء القسري والمضايقات، بينما الإزاحة غير المباشرة تعني أنّ تلك المجموعات تغادر أماكن سكنها طواعيةً لأسباب اقتصادية واجتماعية بحيث لا يعود بإمكانها العيش في ذلك المكان (Atkinson, 2000). في حالة القدس، يجري استخدام وسائل مباشرة وغير مباشرة لإكراه الفلسطينيين على الانتقال، ولأسباب مختلفة، سواء أكان ذلك بسحب الهويّات منهم أم بهدم البيوت أم بفصلهم خلف جدار الفصل. كلّ تعريفات البرجزة تشير إلى عدد من العناصر: نزوح الطبقات المهمّشة؛ الاستثمار الرأسمالي؛ التغيّرات الطارئة على المشهد المكاني للمنطقة المستهدفة وتطويرها (Davidson and Lees, 2005). وقد تركّز الجدل النظري حول أسباب البرجزة في منظورين:

أولاً: ينحاز ديفيد لبي إلى التفسير القائم على الاستهلاك؛ وهو ما يعني أنّ تغيّر العادات الاستهلاكية هو الذي يدفع صوب عملية البرجزة.

ثانياً: ينحاز نيل سميث إلى التفسير القائم على الإنتاج، بناءً على فرضية الفجوة القائمة في الأجور؛ وهو ما يعني أنّ عملية البرجزة تحدث عندما تكون ثمة فجوة ما بين عائدات إيجارات السكن والمكاسب الحقيقية التي يمكن أن يجنيها العقار. وأنا أؤيد دعوة هامنيت (1991) إلى ضرورة وضع نظرية للبرجزة أكثر شمولية، لا تركز فقط على عمليات إنتاج البيوت واستهلاك المتبرجين؛ فعندما يتدخل الحافز السياسي - كما هو الشأن في حالة القدس - تكون ثمة حاجة إلى تقديم أسباب أخرى لعملية البرجزة.

الغالبية العظمى من الأدبيات المتعلقة بعمليات البرجزة في العالم تقرر بين عملية البرجزة والنزوح، وتُبين أن النزوح يحصل في الغالب بعد استكمال عملية البرجزة، بحيث لا تعود الطبقات الدنيا قادرة على العيش في منطقة مرتفعة التكاليف (Atkinson, 2000). بينما في حالة القدس، عملية الترحيل المتعمد للفلسطينيين، الذين تعتبرهم إسرائيل طبقة أدنى، تجري وفق خطة منهجية منذ العام 1967، وتهدف إلى إنجاز مطلوبها بحلول العام 2050، حسب خطة رؤية القدس 5800. عملية إزاحة الفلسطينيين من القدس، إعداداً لتنفيذ خطة 2050، تكشف النقاب عن أهداف المؤسسات الرأسمالية الإسرائيلية الساعية إلى إنشاء بيئة حضرية سياحية تكنولوجية جديدة تخدم أهداف التراكم الرأسمالي على حساب حياة الفلسطينيين. وهذه الرؤية تتفق مع وجهة نظر سميث (2002)، إلا أن سميث لم يركز إلا على الأهداف الاقتصادية لعملية البرجزة، بينما في حالة إسرائيل تقوم أهداف الاستعمار الاستيطاني بدور فعال في عملية البرجزة في القدس، وبالتالي يجري تحقيق هدفين: سياسي واقتصادي.

هنا نأتي إلى السؤال المفاهيمي الأساسي للدراسة، وهو: ماذا نعني بعملية برجزة القدس ضمن سياق الاستعمار الاستيطاني؟ هو استخدام إسرائيل لأدوات القوة والسيطرة لإفراغ القدس من سكانها الفلسطينيين، وإحلال اليهود محلهم ابتغاء تعزيز مشروع الاستعمار الاستيطاني في القدس باسم تطوير المدينة، وهو المشروع الذي يبدو واضحاً من خلال الخطط الهيكلية المختلفة للمدينة: خطة 2020؛ خطة 2030؛ خطة 2050 (5800). المنهج الأقرب إلى دراسة برجزة إسرائيل لمدينة القدس هو منهج الاقتصاد السياسي الماركسي لتفسير عملية البرجزة. وفقاً لهذا المنهج، يجري تنفيذ عملية البرجزة على نحو متعمد لأغراض سياسية واقتصادية (Palen & London, 1984).

ستعتمد الدراسة منهج البحث الكيفي، وذلك بأن تركز على تحليل النص والخطاب، فتعتمد تحليل الخطط الهيكلية التي وضعتها إسرائيل لمدينة القدس، وتحليل خرائط (الخريطة السياحية التي وضعتها وزارة السياحة الإسرائيلية لمدينة القدس، الخريطة المتغيرة لحدود القدس منذ العام 1967)، والمقابلات مع مؤسسات فلسطينية في القدس أو معنية بقضية القدس (ائتلاف القدس؛ بيت الشرق؛ غرفة التجارة العربية؛ مركز القدس للحقوق الاجتماعية والاقتصادية)، والمقابلات العشوائية مع أناس أرغموا على الخروج والعيش خارج حدود المدينة خلف الجدار، أو عانوا من سياسات هدم البيوت، أو سحب الهويات، أو مع أناس سَعَوْا للحصول على الجنسية الإسرائيلية.

تكمّن أهمية الدراسة في هدفها كإسهام في دراسات الاستعمار الاستيطاني، وذلك من خلال تقديم مفهوم البرجزة القائم على الأهداف النيوليبرالية كأداة استعمار استيطاني معاصرة لتحقيق عملية محو الشعب الأصلي وضمّ الأرض وتأكيد الوجود الاستيطاني على الأرض المستعمرة، بالإضافة إلى البحث في الآثار الاجتماعية - الاقتصادية والجيوسياسية لتلك الإجراءات، وعرض علاقات القوة والمقاومة ضمن سياق الاستعمار الاستيطاني.

### ماذا يعني أن تكون باحثاً فلسطينياً؟

"من يكتب حكايته يرث أرض الكلام، ويملك المعنى تماماً" -بهذه الكلمات يختصر محمود درويش معنى أن تكون باحثاً فلسطينياً يبحث في قضايا فلسطين، وهو أن تكون جزءاً من مشروع نزع الطابع الاستعماري عن المعرفة وخلق معرفة أصلانية تضاهي في قوتها المعرفة الاستعمارية المُسَقطة وتدحضاها. ربّما لم تُكتب في التاريخ أبحاث حول بلدٍ ما

بقدر ما كُتِبَ عن فلسطين، سواء أكان ذلك من باحثين فلسطينيين أو عرب أو غربيين، فضلاً عن باحثين آخرين من عالم الجنوب، وكلُّ بحث يأخذ مَنَحَىً مختلفاً من حيث المنهج أو المحتوى أو أداة التحليل المستخدمة مع الربط من زاوية أو أخرى بالسياق الاستعماريّ. على وجه العموم، رُبط الأبحاث حول فلسطين بالسياق الاستعماريّ بمنحها قيمة خاصّة، وذلك نظراً إلى اختلاف النظرة إلى طبيعة الصراع الفلسطينيّ الإسرائيليّ، والذي من ناحية يوجّه مسار البحث ومنهجيتّه، ومن ناحية أخرى يخلق التنوّع والاختلاف في نتائج البحث التي تضيف كلّها مجتمعةً القيمة إلى الإنتاج والتراكم المعرفيّين حول فلسطين؛ فالسياق الاستعماريّ والواقع السياسيّ على الساحة الفلسطينية يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بعملية إنتاج المعرفة، وهذه تنطوي على علاقات قويّة جديدة بين الباحث وموضوع البحث، حيث تبدأ علاقات القوة هذه من لحظة صياغة إشكالية البحث وتصميمه؛ فموقع الباحث نفسه ينطوي على تقاطعات عديدة اجتماعية وثقافية وسياسية، كلّها تشكّل موضع أو موقع (positionality) الباحث. في الوقت نفسه، لا بدّ من الالتزام بأخلاقيات البحث؛ فهي التي تساعد في توجيه البحث ضمن سياقات معيّنة تبعاً لارتباط القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية بالقضايا المعرفية بعامّة. فعلى سبيل المثال، عند البحث في سياق الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين، لا نتحدّث عن موضوع سياسيّ بقدر ما هو موضوع معرفيّ يسهم في تفكيك عناصر هذا النوع من الاستعمار للخروج ببحث نقديّ ومقاوم للاستعمار، أي إنّ المعرفة هنا من أجل خدمة الهدف التحرريّ الوطنيّ في مجتمع يتعرّض، على مدى عقود من الزمن، إلى محاولات محو وإقصاء تستهدف هويّته ووجوده على المستويات السياسية والتاريخية والحضارية والثقافية كافة؛ وذلك أنّ التحرر الفكريّ والمعرفيّ في الحالة الفلسطينية يعادل التحرر الوطنيّ.

تكمّن أهميّة البحث على المستوى المحليّ في فلسطين (أي من إنتاج باحثين فلسطينيين محليّين) في دحض أيّة صور نمطيّة أو نتائج غير واقعية قد يُسقطها باحثون إسرائيليّون بتوجيه من علاقات القوة بين المستعمر والمستعمر، أو باحثون غربيّون يتعاملون مع الصراع على أنّه جزء من الخطاب الاستعماريّ الغربيّ القائم على مسلّمات وافترافات محدّدة ينتجها ويستهلكها الغرب دوّمًا الأخذ في الاعتبار خصوصيّة الحالة أو حيثياتها الواقعية. لذا، ينبغي على الباحث الفلسطينيّ أن يتحمّل مسؤولياته ويأخذ زمام الأمور بيده ويفرض المعرفة التي يعايشها يوماً بيوم دون زيف أو حرج أو الانسياق الأعمى لأجندات الرأسمالية والحدائث الغربية التي لا ترى سوى ما رسمته هي من صور نمطيّة تخدم أجندتها ومصالحها.

بناءً على هذا، هل يمكن اعتبار الحقائق الذاتية المستخلصة معرفة أصلاً حيث تدخل فيها قضايا الموضوعية والانحياز على نحو واضح؟ وأيّ من بينها يمكن أن تكون أكثر مصداقية وموثوقية؟ قد نقول إنّ الموضوعية أكثر مصداقية، ولكن في الوقت نفسه الانحياز إلى تجربة ما يكشف الواقع وعلاقات القوة، التي قد لا يمكن أن يفهمها غير المنحاز، إذ هذا يدخل في إطار أخلاقيات البحث في نظرية المعرفة التي تقوم على تفكيك أسس المجال المعرفيّ وتفكيك علاقات القوة والهيمنة في الوقت الذي يشكّل فيه الباحثون مشاركين ومتداخلين في الأبحاث حول المعرفة القائمة على تحليل علاقات القوة بجميع مستوياتها الجيوسياسية من حيث من ينتج المعرفة ومن يستهلكها، كتطبيق النظريات الغربية على العالم الثالث، ومن حيث طبيعة الباحث والمحلّل من ناحية وموضوع البحث من ناحية أخرى؛ إذ إنّ الباحث والمحلّل هما المنتجان للمعرفة اللذان يمتلكان السلطة المعرفية مقابل موضوع المعرفة الذي تنتج المعرفة عنه والذي هو متضمّن في علاقات القوة، بالإضافة إلى موضوع كيفية تمثيل البشر من خلال الكتابة كالتمثيل السياسيّ والتمثيل المعرفيّ. يمكن

ربط هذا التوجّه بالدعوات إلى نزع الطابع الاستعماريّ عن المعرفة، بحيث إنّه ينطوي على نوع من دحض رواية المستعمر والخروج برواية تحرّريّة ومقاومة ترمي إلى إبراز زَيْف رواية المستعمر الذي لا يستطيع أن يرى نفسه مستعمرًا، بل يرى أنّه صاحب حقّ إلهيّ.

وقضية بَرَجَزَة القدس هي جزء من محاولات المستعمر خلق رواية زائفة يدّعي من خلالها حقّه في المكان ويعزّز هذه الرواية بغرس نوع من الثقافة والهويّة التي تشير إليه فيه. فصراع الهويّة جزء أساسي من عمليّة الاستعمار الاستيطانيّ. وهو صراع متبادل بين المستعمر والمستعمر. فالمستعمر يرمي إلى خلق الهويّة من خلال تغيير المشهد الحضريّ والثقافيّ للمدينة، والمستعمر يرمي إلى تثبيت الهويّة من خلال المقاومة وعدم الرضوخ لمحاولات المستعمر إزاحته. وفي حالة القدس، تكون هذه المقاومة أحيانًا باستغلال القانون والفجوات القانونيّة المتاح له استغلالها، وأحيانًا بالمقاومة الجسديّة والعنيفة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تكون المقاومة بمخالفة قانون المستعمر في تحدّ واضح لجميع التدايعات التي تنطوي على ذلك. فتبرز المقاومة لعمليّة البرجزة هذه ومحاولات إسرائيل إخراج المقدسيّين من المدينة تحديدًا بالممارسات الحصريّة غير الرسميّة (urban informality) في سبيل خلق البيت الذي ترغب إسرائيل في حرمانهم منه. وعلى الرغم من إجراءات إسرائيل المتواصلة لوقف هذه الأعمال التي تعتبرها مخالفة للقانون، ومقاومتها بالهدم أحيانًا وبالتهديد في أحيان أخرى، فإنّ هذا أسهم حتّى اليوم في التسبّب في نوع من الفشل لإسرائيل في إزاحة سكّان القدس إزاحة كاملة -وإن كان لها نجاحات في عدّة حالات فرديّة.

- Atkinson, R. 2000. "Measuring Gentrification and Displacement in Greater London." *Urban Studies*, 37, No. 1: 149-165.
- Glass, Ruth (ed.). 1964. *Aspects of Change*, in Centre for Urban Studies. London: MacGibbon and Kee.
- Hamnett, Chris. 1991. "The Blind Men and the Elephant: The Explanation of Gentrification". *Transactions of the Institute of British Geographers* 16, No. 2: 173-89.
- Hamnett, C. and P. Williams. 1980. *Social Change in London: A Study of Gentrification*. *Urban Affairs Quarterly* 14, No. 4: 469-487.
- London Bruce and John Palen (eds.) 1984. *Gentrification, Displacement and Neighborhood Revitalization*. Albany, NY: State University of New York Press
- Lyons, M. 1996. "Gentrification, Socioeconomic Change, and the Geography of Displacement." *Journal of Urban Affairs* 18, No. 1: 39-62.
- Davidson, M. and L. Lees. 2005. "New-build "gentrification and London's riverside renaissance." *Environment and Planning*, No. 37: 1165-1190.
- Smith, Neil. 1979. *Toward a Theory of Gentrification A Back to the City Movement by Capital, not People*. *Journal of the American Planning Association* 45, No. 4: 538-548.
2002. "New globalism, new urbanism: gentrification as global urban strategy." *Antipode* 34, No. 3: 427-50.

• حلیمه أبو هنیه هی طالبة دكتوراة فی العلوم الاجتماعیة فی جامعة بیر زیت